تاريخ التقويم المصري

والاحتفال بعيد النيروز أو النوروز
او رأس السنة المصرية

لفارس صالح نخز

احتفل قبط مصر برأس السنة المصرية الزراعية الجديدة فودعوا فيه عاماً ماضياً حافلاً بجلائل الأمور واستقبلوا عاماً جديداً يرجون فيه أن يكون عام خير على الأمة المصرية جمعاء وهو عام ١٦٥٧ للشهداء الأبرار

وقد طلب مني كثير من اخواني أن أكتب كلمة في تاريخ وضع التقويم المصري الزراعي وفي كيفية الاحتفال بيوم النيروز أو رأس السنة المصرية القديمة فلبيت الدعوة ووضعت المقال الآتي مستعيناً فيه بما كتبه رجال العلم والتاريخ وأخص بالذكر منهم العلامة الفاضل جرجس فيلوثاوس عوض وقد قسمت الموضوع الى قسمين

القسم الاول

تاريخ التقويم المصري

١ — { وضع التقويم } شعر أجدادنا المصريون في غابر الأزمان بالحاجة الى تقسيم الزمن لترتيب الأعمال حتى تكون الأشياء مرهونة بأوقاتها فالزارع يحتاج الى معرفة الوقت الذي يجب فيه أن يجهز أرضه للزراعة وأن يختار الجو الذي يلائم زراعته والزمن الذي تتوفر فيه المياه أو تقل حتى يكون على بينة من نجاح عمله وكذلك التاجر والصانع يحتاج الى معرفة الوقت الذي يناسب فيه توزيع صناعته ومصنوعاته على المحتاجين اليها والوقت الذي يتمكن فيه من تحصيل ثمنها. وكذلك الحاكم يريد معرفة الزمن الذي يتوفر فيه المال لدى رعيته فيسهل عليه جباية المقرر بدون اكراههم على بيع أملاكهم ومقتنياتهم. والأحبار رأوا منذ العصور الخالية شدة الحاجة الى هذا التقسيم لتكون أعمالهم مرتبة ترتيباً يحقق تقدم البلاد وتنظيم سير الأعمال ونجاحها. ففي بدىء الأمر رأوا أن الشمس روح الزراعة والنيل حياتها فبدأوا يجعلون اليوم (ليلة ونهار) وحدة لقياس الزمن ومنه أخذوا في حساب الأيام استعملوا الأسبوع ثم لاحظوا أن القمر يقطع دورته في نحو ٣٠ يوماً فعدوها شهراً. وحيث أن الوقت الذي يجمع بين فيضانين يليين يشتمل على

نحو اثني عشر هلالاً جعلوا قوام السنة الزراعية اثني عشر شهراً أو ٣٦٠ يوماً

واستعملوا هذا التقويم في بادىء الأمر الى أن لاحظ توت في العصر السابق للتاريخ ان الأسبوع غير كاف وان الاثني عشر شهراً هلالياً وان تكن جامعة تقريباً بين فيضانين الا انها تنقص أحد عشر يوماً فلم يسعه سوى البحث عن ضابط ثابت يضمن ان تكون توقعاتهم الزراعية لا تختلف في سنة عن الأخرى وقد توصل في أبحاثه الى الاهتداء الى ان نجم الشعرى اليمانية أسطع الكواكب الثابتة يظهر مقارناً للشمس وقت شروقها وغروبها في ابتداء زمن الفيضان النيلي الذي عليه تتوقف حياة البلاد وثروتها فلم يتردد بأن جعل ذلك الزمن بدء سنتهم وتأليف السنة من اثني عشر شهراً في كل منها ثلاثون يوماً يضاف اليها خمسة أيام تعرف بأيام النسيء فصارت السنة ٣٦٥ يوماً

وقد احتفظ المصريون لتوت بهذا الجميل فأطلقوا اسمه على الشهر الأول من السنة كما أنهم دعوا نجم الشعرى اليمانية بنجم الالهة إيزيس

٢ — (التعديلات التي أدخلت على التقويم) واستمرت مصر على استعمال هذا الحساب ولكن رئي أن حساب السنة المتقدم ينقص ربع يوم فاتفق فلكيو مصر على جمع تلك الأرباع في مدى ١٤٦٠ سنة ليكونّ من المجموع سنة كاملة وقرروا اسقاطها من حساب التاريخ وكانوا يحتفلون عند تكامل هذه السنة باقامة الأفراح والمسرات ليلاً ونهاراً بين سرور جميع أنحاء البلاد

واستعمل التقويم على هذا الأساس الى السنة الخامسة من حكم أغسطس قيصر أي في السنة الخامسة والعشرين قبل الميلاد فبدلوا حساب السنة القديم بالسنة المرمة أي المؤلفة من ٣٦٥ يوماً وربع يوم التي رتبها الفلكي المصري سيسينوس المعروف عند الأفرنج باسم سوزيجين الاسكندري (Sosigene) واستمروا في استعمال هذا التقويم المعدّل الى يومنا هذا ومع أن علماء الفلك المصريين لاحظوا وجود فرق يسير في هذا الحساب المعدل أيضاً الا أنهم لم يتمكنوا من اصلاحه بسبب الحوادث التي حلت بالبلاد وأفقدتها استقلالها حينما احتلها الأجانب الذين اضطهدوا أهلها وعلماءها

ومما تقدم يتضح ان المصريين الأقدمين هم أصحاب الفضل الأول والسبق على سائر شعوب العالم وأممه في تقسيم الزمن وضبط حسابه بدقة متناهية كما شهد لهم بذلك أقدم مؤرخي وهو أبو التاريخ هيرودوتس الاغريقي

وإذا تأملنا تقسيم السنة وجدنا أنهم راعوا فيها مصلحتهم الزراعية فجعلوها ثلاثة فصول كل فصل يحتوي على أربعة أشهر أولها الفصل الزراعي ويتألف من توت وبابه وهاتور وكيهك وثانيها فصل الحصاد ويتألف من طوبه وأمشير وبرمهات وبرموده وثالثها فصل الفيضان

ويتألف من بشنس وبؤونه وأبيب ومسرى وأيام النسيء . ولذلك عرفت حتى وقتنا هذا بالسنة الزراعية وعليها يعتمد الفلاح في فلاحة أرضه وحساب سنته الزراعية وعقود إيجاراته

القسم الثاني

تاريخ الاحتفال برأس السنة

١ — ﴿ الاحتفال برأس السنة في العصور الوثنية والمسيحية ﴾ كان المصريون القدماء في العصور الأولى يحتفلون برأس السنة احتفالاً وطنياً فخماً يشترك فيه الأمير والحقير والغني والفقير وعلى رأسهم ملك البلاد ليودعون فيه عامهم المنصرم ويستقبلون عامهم الجديد ويأملون فيه اليمن والاقبال ويتمنون فيه للنيل فيضاناً عالياً يروي البلاد وينمي غلتها ويكثرها

وقد ألبس الكهنة عيد رأس السنة المصرية حلة دينية فنادوا بأن الإله توت مبدع التقويم المصري القديم وأن النيل مصدر حياة الأراضي المصرية التي تمون زراعتها بفيضانه وتكتسب تربتها الخصب بطميه ولا غرابة في ذلك لأن مصر هي هبة النيل

وكان الملك يرأس الاحتفال في عاصمة القطر وكان الحكام يرأسونه في الأقاليم وكانوا يبيحون فيه للرعية الحرية التامة ويتبادلون معهم المسرات بلا فرق بين حاكم ومحكوم وكان في حالة تعذر وجود الملك أو حاكم الأقاليم بتولي رئاسة الاحتفال ينوب عنه رؤساء الأحبار

وكان يتألف الاحتفال من موكب يرأسه الملك ويقف حوله ثلاثة عشر كاهناً يحملون أعلاماً عليها رموز الآلهة ورسومها المختلفة ويسير موكبهم داخل الهيكل في المعابد وكان يشترك في الاحتفال الرجال والنساء والأطفال معاً حيث كان يسمح باختلاط الجنسين اللطيف والخشن معاً لأن الرقي الاجتماعي بلغ في تلك العصور المتقدمة أعلى الدرجات

وبالإجمال كانت احتفالات رأس السنة في عصور الفراعنة جامعة بين الهيبة والعظمة والسرور والبهجة وكان المصريون يستقبلون رأس توت صبيحة يوم الجديد بكل بشر وانشراح متوقعين فيه كل خير لزرعهم التي تتوقف حياتها على الفيضان النيلي حتى كان كهنتهم يقدمون [illegible] صنوفاً [illegible] الموجود بجزيرة فيلة جنوب جزيرة أسوان [illegible] في هذا العيد والاغتباط يحيون يوم رأس السنة الجديدة التي يعتبرونه عيداً وطنياً عاماً

واستمرت كذلك الاحتفالات بعيد رأس السنة في عهد البطالسة والرومان [illegible] في عهدهم عظمة وبهاء فأقاموا معبد دندرة وجعلوا فيه مكاناً خاصاً حاوياً اثني عشر [illegible] رمزاً للشهور [illegible] للاحتفال [illegible] شهري النهاية وجعلوا له [illegible]

خاصًا في وسط الهيكل الكبير وخلدوا الاحتفالات بتصويرها نقشاً في السقوف والجدران.

اما في العصر المسيحي فكانت الصلوات والابتهالات تقام بالكنائس والديارات كما كان يقوم رهبان دير ابي مقار ببرية شيهات بوادي النطرون باحتفال ديني يقدسون فيه ماء موضوعاً في قدر كبيرة يطرحونها في النيل كما كان يفعل كهنة العصر الوثني من القاء بعض الجواهر في النيل ليفيض ماؤه بغزارة لارواء البلاد

٢ — (تهمة باطلة) وقد نسب مؤرخو العرب بعد الفتح العربي بزمن كبير الى المصريين امر تقديم احدى بناتهم سنويًا قربانًا للنيل كما نسب بعضهم اليهم ذبح امرأة كبيرة يوم الاحتفال وهذه رواية لا حقيقة لها لان ديانة المصريين القدماء ليس فيها ذبائح بشرية كما ان الديانة المسيحية وهي التي كانت ديانة البلاد وقت الفتح العربي تحرم القرابين الآدمية ولو كان لهذه القصة ظل من الحقيقة لرواها هيرودوتس أبو التاريخ الذي زار مصر وشاهد فيضان النيل واشترك في حفلات النيروز ولم يترك شيئاً من مشاهداته في مصر الا دونه في تاريخه حتى أتفه الأمور وكذلك لم نر شيئاً عن ذلك في تاريخ ديودوروس الصقلي واسترابون وغيرهم من علماء التاريخ الذين زاروا مصر واختلطوا بأهلها ودرسوا عاداتهم ودياناتهم واشتركوا في حفلاتهم فضلاً عن أن المرأة المصرية كانت لها في الهيئة الاجتماعية منزلة ممتازة تغبط عليها وكانت موضع الاحترام والتبجيل وكانت القوانين المصرية تحميها وتحترم حقوقها وتحرم بيعها فلذلك لا يشك احد في ان المصريين أبرياء من هذه الوصمة التي نسبت اليهم . وقد ذهب بعض العلماء الى ان خطأ مؤرخي العرب نجم من عدم فهمهم لكلمة عروس وهي اسم لاحد الآلهة من حماة النيل وذهب البعض الآخر الى انهم لم يدركوا كنه القرابين التي كان يقدمها كهنة هيكل أنس الوجود ولا المغزى المقصود من قدر المياه المباركة التي كان يقدسها رهبان أبي مقار ويلقونها في النيل يوم النيروز ليبارك الله في مائه . وأما مصدر رواية القرابين البشرية فهو أن بعض القبائل الهمجية في السودان كانوا يلقون في حفلات الزفاف بعذراء في النهر ورآها العرب عند غزوهم هذه البلاد

٣ — (الاحتفال برأس السنة عند الفتح العربي) لما فتح العرب مصر واستتب لهم حكم البلاد لم يبدل القبط شيئاً من احتفالاتهم الوطنية والدينية بل حافظوا على عوائدهم القديمة واستمروا على إحياء عيد رأس السنة والاحتفال به سنويًا حتى ان الخلفاء لما رأوا شدة الاستمساك بأعيادهم القومية لم يسعهم سوى الاشتراك معهم في هذه الأعياد وكان الخلفاء الفاطميون يتخذون هذه الأعياد والمواسم أعياداً رسمية يرأسون احتفالاتها ويمنحون فيها العطايا والهبات ويوزعون الكساوى الفاخرة والحلي الثمينة والفاكهة والحلوى وقد روى المقريزي في خططه ما يؤيد ذلك إذ قال « وكان النوروز القبطي في أيامهم أيام الخلفاء الفاطميين من جملة المواسم

تعطل فيه الأسواق ويقل فيه سعي الناس في الطرقات وتفرق فيه الكسوة لرجال أهل الدولة وأولادهم ونسائهم والرسوم من المال وحوايج النيروز »

وكان من عادات المصريين في هذه الأعياد اشعال النيران والتراش بالماء وتمكن أمير المؤمنين المعز لدين الله منع في سنتي ٣٩١ و ٣٩٢ لمشهداء إيقاد النيران ليلة النيروز وكذلك صب الماء يوم النيروز على ما رواه ابن زولاق وقد وصف القاضي الفاضل والقلقشندي وابن المأمون وابن اياس وعلي باشا مبارك عظمة الاحتفال بالنيروز في عهد الخلفاء الفاطميين وما كان يقدم فيه من الهدايا والعطايا والفاكهة والحلوى ملخصاً فيما يلي : —

كان يجتمع في ذلك اليوم السواد الأعظم من عامة الناس ويقيمون عليهم أميراً يسمى أمير النيروز فيسيرون في الطرقات تحت إمرته ويقفون على أبواب الأكابر من أعيان الدولة ويفرض هذا الأمير على كل عظيم أو أمير مبالغ يحصلونها منه وكل من امتنع عن الدفع « بهدلوه » بما يكره مقامه وسبوه سباً قبيحاً ولا يبرحون بابه حتى يأخذوا منه ما تقرر عليه غصباً واقتداراً وكانوا يغنون في الطرقات ويتصافعون بالانطاع والأخفاف ويضيقون على الناس الطريق ويمنع الخروج في هذا اليوم الى الاسواق وتغلق فيه أسواق القاهرة ودكاكينها وكل من ظفروا به في الطرقات « بهدلوه » بغض النظر عن علو مكانته وسمو مركزه فيرشونه بالماء القذر ويرجمونه بالبيض وكان الناس يتجاهرون بشرب الخمر وكثرة الفسق وكانت تقدم الكساوي الكثيرة من شقق ديبقية مذهبات وحريريات ومعاجر لباس نسائي وعصايب نسائية ملونات وشقق لاز مذهب وحرير ومسقع وفوط ديبقية وتوزع على الجميع بلا فرق بين القبط والمسلمين من رجال القصور ودور الوزارات والشيوخ والأصحاب والخواشي والمستخدمين ورؤساء المراكب ولم يكن لأحد من الأمراء في ذلك نصيب

وكان يحمل لأكابر مصر من القبط والمباشرين من أصناف الفاكهة الرمان وعراجين الموز وشماريخ السفرجل والتفاح الشامي وقفف البلح وأقفاص العنب والتمر القوصي والبطيخ الصيفي والرطب والخوخ المشمر ... الهريسة الملونة من لحوم الدجاج ولحم الضأن بعطف الحلاب وصحون الحلاوى القاهرية وغير ذلك من الأنواع اللطيفة وكانت هذه الأصناف تفرق أيضاً على الأمراء ورجال القصور والوزراء والمستخدمين وأصحاب الرتب الأخرى وكان يرصد لها من أموال الدولة زهاء آلاف دينار ذهب وخمسة عشر ... قصه

واستمر ... على ... الى أيام حكم السلطان برقوق في آخر الجيل الرابع عشر ... فأبطل ... الحادثات في النيروز سنة ١٠٠٠ ... من لعب النيروز ... بالعقوبة فكف الناس عن اللعب في القاهرة وصاروا يقصدون الخلجان والبرك ومواضع ...

في يوم رأس السنة واقتصروا فيه على رش الأمواه والصادم كما سمح بإيقاد النيران في المنازل الخاصة دون الطرقات

ويتضح جليًّا مما تقدم أن القبط والمسلمين كانوا يحتفلون بموسم النيروز حتى رتبت لهم خزينة الدولة كساوى وهدايا مخصوصة وأن السفلة والرعاع من المحتفلين به كانوا يتظاهرون بأمور شنيعة كما يحدث الى الآن في الموالد والمواسم والاعياد وأن عمل هؤلاء السفلة دعا أولياء الأمور في نهاية الجيل الرابع عشر الى ابطال الاحتفال به رسميًّا ومنع اشتراك الحكومة باحيائه واكتفى باحتفال جبر الخليج

ورغم المنع الذي حدث في آخر الجيل الرابع عشر لم يغير اهل البلاد من قبط ومسلمين عادتهم التي ورثوها عن أسلافهم فكانوا يحتفلون بالنيروز فيأخذون اولادهم ومواشيهم الى النهر والترع للاستحمام وينقلون من مائها الى دورهم للتبرك واكتفى القبط بإقامة الصلوات والابتهالات في الكنائس والتزاور بينهم في المنازل وتبادل هدايا البلح والرمان

وكان معلمو كتاتيب القبط وقد كانت المدارس الوحيدة في البلاد يوزعون على التلاميذ اوراقاً رسمت عليها الصلبان المزخرفة وصور القديسين والملائكة داخل اطارات من الأشكال البركارية ملونة بألوان زاهية وكان يطلق على هذه الأوراق اسم النيروز فيقوم آباء التلاميذ بمكافأة هؤلاء المعلمين كل بقدر استطاعته

وكان اطفال كل حي يطوفون بدور الاكابر والاعيان في حيهم وينشدون أناشيد الفرح بالعيد وبوفاء النيل قائلين (البحر زاد عوف الله وغرق البلاد عوف الله الخ) ثم يدعون لأصحاب الدور بالخير فيمنحونهم نقوداً وحلوى أو كساوي ولا تزال آثار ذلك باقية للآن في القاهرة في الاحياء الوطنية . واستمر الحال كذلك الى ان تولت الجمعيات القبطية في آخر الجيل التاسع عشر احياء الاحتفال بهذا العيد وعلى رأسها جمعية التوفيق القبطية المركزية بالقاهرة التي استمرت منذ تأسيسها الى الآن تقيم حفلة النيروز وكان الفضل في تجديد الاهتمام بالعيد للمرحوم تادرس بك شنوده المنقبادي واخوانه بأسيوط

وحبذا لو ان حكومتنا السنية جعلت عيد جبر الخليج في يوم النيروز حفظاً لذكرى هذا العيد القومي واحتفاء بالسنة الزراعية الجديدة وفيضان النيل في وقت واحد

واختم كلمتي بتكرار التهاني لحضرات القراء الكرام بهذا العيد السعيد أحياهم الله في كل عام منسربلين بحلل السعادة والهناء واسأل الله تعالى ان يكون هذا العام عاماً سعيداً مباركاً ميمون الطالع يرفرف فيه السلام على العالم ويزيل عنه كابوس الحرب وكربه ويحل السلام والوئام محل العراك والخصام انه سميع مجيب